أحمد برقاوي

نقد «صراع الحضارات»، و«حوار الحضارات» ـ ٢ ـ

لا حوار بين الحضارات ولا صراع

زيف السؤال

حين عنونتُ مقالي بـ «لا حوار بين الحضارات ولا صراع» فإنّما أردتُ أن أتحرر من الوقوع في أسر السؤال السائد الآن: أحوار بين الحضارات أم صراع؟ فمن الواضح أنّ صيغة السؤال على هذا النحو تستبدّ مباشرةً بالجواب لأنّها تضعنا أمام خيارَيْن: إما أن نُقرّ بالحوار أو أن نعترف بالصراع... إما أن نرجو الحوار في وقتٍ يَنْزع البعضُ فيه إلى تأكيد منطق الصراع، أو ننزع إلى تأكيد الصراع في وقتٍ يبدو لنا فيه الصراعُ أمراً واقعاً.

وإنّي إذ أنفي الحوارَ والصراعَ على منطق العلاقة بين الحضارات فلكي أدْخلَ المسألةَ متحرِّراً من الشائع الخاطئ، الذي نَتَجَ بالضرورة من السؤال الزائف أعلاه.

ماذا أقصد بأنّ السؤال على هذا النحو زائف؟

أقصد أنّ صيغة السؤال أسيرةُ المنطق الصُّوَريّ، وخاصةً قانون الثالث المرفوع: «إمّا... أوْ». وأنا لا أميل إلى القول هذا وذاك معاً، للتخلص من الاحتماليْن السابقين.

فالحق أنّ سؤال العلاقة بين الحضارات سؤالٌ تاريخيّ، والسؤال التاريخيّ لا ينبع إلاّ من واقع سيرورة التاريخ. فَمِنَ الأقوم إذّاك أن نَسْأل: ما منطقُ العلاقة بين الحضارات؟ والإجابة عن هذا السؤال تتطلب العودة إلى تاريخ العلاقة، أيْ إلى الاستقراء للوصول إلى حكمٍ عامٍ أو قانونٍ.

وقبل أن أجيب عن سؤالي هذا، الذي أعتبره سؤالاً صحيحاً، فلنفحصْ لماذا طُرِحَ السؤالُ بصيغته الزائفة: «حوار أم صراع؟». فالواقع أنّ الأساس الذي استدعى ظهورَ السؤال زائفاً هو العلاقة بين الغالب والمغلوب، بل إنّ خطاب الحضارة السائد الآن يَعْكس هذه العلاقة.

فالغربيّ المنتمي إلى الحضارة العالميّة المتفوّقة ـ بمعنى عالمية انتشارها ـ مأسورٌ في هذا الوضع من الغلبة. وذلك أنّ حضارته أنتجتْ وعياً بالتفوُّق، وصارت من زاوية وعيه هذا معيارَ التقدُّم الحضاريّ. وهكذا غدا الجزئيُّ كلياً، وصار التقدُّمُ التقنيُّ والديموقراطيةُ ونمطُ الحياة الرأسمالية معياراً يقيس عليه الآخرَ.

ولاشك، عندي، أنّ الغرب حضارةٌ قد انتصر على الطبيعة انتصاراً لا مثيلَ له في تاريخ البشر. ونحن نَشْهد، في كل لحظة، تحوُّلَ المعرفة لديه إلى تقنيّة وأسلحةِ دمار. كما أنّ حالة الرفاه التي هو عليها قد غَدَتْ منطَلَقاً للنظر إلى حالة البؤس التي يعيشها العالَمُ الآخر: وأعني بؤسَ الحياة

الحضارات الراكدة تتأثَّر بالحضارة المتحرِّكة والحيويَّة تأثراً خارجيّاً، حتى لو تَرجمتْ كلَّ منجزاتها

السياسية الديكتاتوريَّة، وبؤسَ الحياة الاجتماعيَّة ـ الاقتصاديَّة، وبؤسَ حياة العنف والحروب.

بناءً على هذا فإنَّ وعي الغرب التاريخيَّ بالعالم المعيش هو وعيٌ بعالميْن متناقضيْن، وبحضارتيْن منفصلتيْن مختلفتيْن. وبفعل العداء الذي يكنُّه العربيُّ، أو الشرقيُّ بعامةٍ، للأوروبيّ بوصف هذا غالباً مهيمناً، فإنّ الأوروبيّ لم يرَ في علاقته بالآخر إلا علاقةَ تناقضٍ وصراعٍ. ومن هنا نشأتْ فكرة «صراع الحضارات» لديه.

وبالمقابل استهوتْ هذه الفكرةُ بعضَ العرب، ولاسيَّما الإسلاميُّون، كما استهوتِ الإسلاميين [من غير العرب] بعامَّةٍ. وآليةُ ذلك أنّ وعيهم بالتاريخ الحديث والمعاصر قد نشأ وتطوَّر في ظل الهيمنة الأوروبيَّة. فنظروا إلى حضارة الغرب بوصفها حضارةَ الغالب التي من أهدافها الإتيانُ على حضارة المغلوب. والحقّ أنّ المغلوب عانى تاريخاً من الصراع مع الغرب، فَدَفَعَه وعيُه لهذا الصراع إلى اعتباره من مستوى الصراع الكليّ الأبديّ بين حضارتيْن: أوروبيَّةٍ ـ وأحياناً أوروبيَّةٍ مسيحيَّةٍ ـ، وإسلاميَّة. بل إنّ حضارة الغرب كما يرى الإسلاميُّون هي أساساً حضارةُ العداء للإسلام. ومن هذه الزاوية، فإنّ وعي هنتنغتون بالحضارات بوصفها متصارعةً شبيهٌ ـ وإنِ اختلف أساسُه ـ بوعي بعض الإسلاميِّين المعاصرين.

فالفكرة الأساسيَّة التي تنطوي خلف خطاب صاحب فكرة «صراع الحضارات» هي التالية: لقد انتصرت الحضارةُ الأوروبيَّة بما هي نظرةٌ إلى العالم، وانتصرتْ معها أشكالُ التقدُّم المتعدِّدة التي تتمتع بها. وهذه الحضارة متميِّزة، ولا يمكن إعادةُ إنتاجها في أية حضارةٍ أخرى، حتى وإنْ وصلت هذه الحضارات الأخرى إلى مستوى عالٍ من التقنيَّة والعلم؛ ذلك أنّ روح الحضارة الأوروبيَّة خاصةٌ بالأوروبيِّين وحدهم. وهذه الحضارة الأوروبيَّة، لكي تحافظ على روحها، يجب أن تسيِّجَ نفسَها بنوع من القوة العسكريَّة لأنَّها تواجهُ حضاراتٍ أخرى تناصبها العداء. فالحضارات ـ بهذا المعنى ـ جواهرُ ثابتةٌ، لا تنال الأشكالُ الخارجيَّة المتشابهةُ بينها من ماهيتها الأصيلة.

وفي ظني أنّ فكرة «نهاية التاريخ» لا تختلف في الجوهر عن فكرة «صراع الحضارات». ذلك أنّ الأوروبيّ في مستوى تطوُّره الراهن هو نهاية التاريخ العالميّ. أي إنّ غائية التاريخ قد وصلتْ إلى منتهاها مع انتصار الأوروبيّ في الحداثة والديموقراطية. كما وجدت اكتمالَها في النموذج الأمريكيّ. وعلى جميع الحضارات الغارقة في وحل التاريخ أن تتحرَّر من تناقضاتها الطبقيَّة والعرقيَّة والثقافيَّة إنْ هي أرادت أن تعيد إنتاج المثال الأوروبيّ النهائيّ.

في كلا الحالَيْن، الأوروبيُّ معيارُ الحضارة كما يجب أن تكون. وعلى هامش هاتيْن الفكرتيْن لا نَعْدم وجودَ موقفين مناقضيْن: الأول أوروبيّ، والآخر شرقيّ.

ـ فهناك أصواتٌ أوروبيَّة تستعيد إرثَ النزعة الإنسانيَّة، ناقدةً الطابعَ الفقيرَ والأحاديَّ للحضارة الغربيَّة، ومعلنةً أنّ موت الروح في هذه الحضارة هو سقوطُها وانهيارُها. فمن شفيتسر، إلى مونيه، مروراً بغارودي، نجد نقداً لهذا الإفقار الشديد لحياة الإنسان الأوروبيّ، ودعوةً إلى تكاملِ الحضارة في جانبها الماديّ والروحيّ. وانطلاقاً من نزعةٍ إنسانيَّةٍ كهذه، تُخْلي مثلُ هذه الأصواتِ الاوروبيَّةُ مكاناً ما لحضارات الشعوب الأخرى ـ الهنديَّة والعربيَّة والصينيَّة.

ـ ثم يلتقط عربيٌّ ما هذا النقدَ الذي يَرْفض فكرةَ «صراع الحضارات» أو «نهايةَ التاريخ»، ويقوم بعمليةِ توفيقٍ أو دعوةٍ إلى التوفيق بين الجانب الماديّ المتطوِّر لحضارة الغرب والجانبِ الروحيّ المميّز لحضارة الشرق.

غير أنِّي أعتقد أنّ أشكال الوعي الآنفة الذكر ذاتية جداً، وتنطلق إما من نزعة أيديولوجيَّة قوميَّة أو عِرقيةٍ أو دينيَّةٍ، أو من نزعةٍ إنسانيَّةٍ رومانسيَّةٍ وأخلاقيَّةٍ.

والمسألة لا تُحلّ بمدخليْن كهذيْن المدخليْن.

فإذا كان السؤالُ السابقُ الزائف، «حوار أم صراع؟»، قد أَنْتَج أجوبةً هي بالضرورة زائفة، فما هي الصيغةُ المثلى للسؤال حول الحضارة؟ أوْ لنطرح السؤال على النحو التالي: ما هي أشكال العلاقة التي تقوم تاريخيّاً بين الحضارات؟ وهل يدخل شكْلُ العلاقة الراهن في ما هو عامٌّ تاريخيّاً؟

إنّ السؤال على هذا النحو الحياديّ جداً لا يَفْترض إلا شيئاً واحداً، ألا وهو وجودُ علاقةٍ ما بين الحضارات، ولكنْ دون أن يحدِّد على أيّ نحوٍ كانت، وعلى أيّ نحو هي قائمة اليوم. وعندما نفترض وجود العلاقة فإنَّما نقرِّر واقعةً تاريخيَّةً لم يخلُ التاريخ منها إطلاقاً إلاَّ في حالات الأقوام البدائيَّة المغلقة قبل هذا القرن.

فلنطرح الآن الفرضيَّة التالية ثم نقوم بامتحانها:

تتأسَّس العلاقة بين الحضارات على مبدإ الحاجة التي تقرِّرها مستوياتُ القوَّة والضعف وأدوارُ الحضارة ذاتها.

وينتج من استقراء حالات العلاقات بين الحضارات المبادئ التالية:

المبدأ الأول: وهو أنّ الحضارة الوليدة والناهضة قادرةٌ على أنْ تَهْضمَ منجزاتِ حضاراتٍ أخرى سابقةٍ عليها أو معاصرةٍ لها، ثم تعيد إنتاجَها في عمليةِ إنجاز حضارتها، بحيث يغيب الطابعُ المحليّ للحضارات التي استُدعيتْ بفعل الحاجة إليها.

ونقصد بـ «الحضارة الوليد الناهضة» أنّ أمةً من الأمم قد أنتجتْ قوى اجتماعيَّةً صاعدة (بفعل تطوُّرٍ اقتصاديٍّ سياسيٍّ أخذتْ على عاتقها مهمةَ إنجاز تاريخ جديدٍ يتجاوز واقعها القديم. ويؤدي انتصارُ هذه القوى إلى ولادة نموذج حضاريٍّ

ذي كيفٍ جديدٍ قابلٍ للانتشار. وغالباً ما تكون الحضارة الوليدة حضارةً كليَّةً، فتتطوَّرُ جوانبُها كلُّها، الماديةُ والروحيَّةُ، وتَخْلق لدى أبنائها ونخبها ثقةً مطلقةً بالنفس تجاه الحضارات الأخرى. ولمّا كانت أيةُ حضارةٍ غيرَ قادرةٍ بشروطها الذاتيّة وحدها على أن تتطوَّر وتزدهر، فإنَّها تَحْفر مجاريَ متعدِّدةً لتصبّ في نهرها، دون أن يخالِجَها شعورٌ بالدونيَّة تجاه الجداول، وذلك لأنَّ ماء الجداول يغدو جزءاً من ماء نهرها الكبير.

ونموذج الحضارة اليونانيَّة شاهدٌ على ذلك، ويَشْهَدُ على ذلك أيضاً نموذجا الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة والحضارة الأوروبيَّة الحديثة.

فليست الحضارة اليونانيَّة إلا ظهوراً للمدينة ـ الدولة، وتقسيماً جديداً للعمل أنْتج طبقةً من الأحرار تفرَّغتْ للتفكير والحكم وقيادة الحرب. ولقد عَبَّتْ طبقةُ الأحرار المفكِّرة هذه من معين الحضارات السابقة عليها، وأعادت إنتاجَ أساطيرها وعلمِها وفلسفتِها في كيفٍ جديدٍ من المعرفةِ والفلسفةِ والديانةِ وشؤونِ الحياة.

وكان الاغريق واعين لمثل هذا الأمر، ومدركين لأهميَّة حضارات الفراعنة والآشوريِّين والهنود في تكوين حضارتهم. فقد رأى هيروديت أنَّ الديانة والحضارة اليونانيَّتيْن قد أتَتا من مصر. وفي محاورة طيماوس لأفلاطون يقول أحدُ الكهّان المصريِّين لسولون: «أيُّها اليونانيُّون أنتم أطفال». وكان أرسطو يقول: إنّ العلوم الرياضيَّة قد نشأتْ في أرض مصر حيث كان الكهنةُ يتمتَّعون بالفراغ الضروريّ للدراسة. ومن الثابت أنّ ديمقريطس قام برحلاتٍ إلى اليمن وبلاد أخرى.

وقد ساعد اليونانيِّين في اكتساب منجزاتِ حضارة الشرق قربُ مستعمراتهم من آسيا الوسطى، وتماسُّهُم المباشرُ مع شعوب الشرق[1].

ثم جاء الفتحُ المقدونيُّ ينشر الحضارة اليونانيَّة في الشرق. فتحوَّلت الحضارة اليونانيَّة إلى حضارة عالميَّة، وصارت أُستاذاً للشعوب بعد أن كانت تلميذاً عند مصرَ وحضارةِ ما بين النهريْن.

وقِسْ على ذلك الحضارةَ العربيَّةَ ـ الإسلاميَّةَ التي انطلقتْ فتيَّةً من جزيرة العرب بفضل قوى سياسيَّةٍ ـ تجاريَّةٍ صاعِدةٍ محمَّلةٍ برسالةٍ جديدة هي الإسلام.

ولقد أدّى الفتحُ الإسلاميُّ للعالم السوريّ والفارسيّ إلى أنْ وَجَدتِ الحضارةُ الوليدةُ نفسَها أمام حضاراتٍ منهارةٍ سياسيّاً، لكنّ إرثها الروحيّ سرعان ما تحوَّل إلى جزءٍ من هذه الحضارة الوليدة. فلقد صبَّتْ منجزاتُ روما وفارس، ومن ثَمَّ الهند واليونان، في نهر الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، طابعةً إيَّاها بطابعها الخاص ـ فلسفةً وطبّاً وهندسةً وحكمةً. ولا أحتاج إلى الإسهاب في هذه النقطة التي باتت معروفة لدى الغرب والشرق[2].

وليس بخافٍ على أحد أنّ أوروبا، حين كانت على عتبة تجاوز قرونها الوسطى، قد استدعت العِلْمَ العربيَّ والفلسفةَ العربيَّةَ. ولقد سيطرت المؤلَّفاتُ العربيَّة العلميَّة، التي بدأتْ ترجمتُها في القرن الثالث عشر، على الفكر العلميّ الأوروبيّ لأربعمائة عام تقريباً. ففضلاً عن تعرُّف الغرب على المعرفة اليونانيَّة من طَريق الترجمات العربيَّة، تُرجمتْ كتبُ ابن الهيْثم والخوارزمي وابن سينا في العلم؛ وأمّا في الفلسفة فلقد نشأ تيارٌ فلسفيٌّ أوروبيٌّ متأثِّرٌ بابن رشد الذي تحوَّل إلى سلاحٍ تنويريٍّ ضد الكنيسة[3].

المبدأ الثاني: وهو أنّ انتقال منجزات الحضارات إلى حضارة صاعدة تَمَّ ويتمُّ وفْقَ آليةِ انهيار حضاراتٍ غَدَتْ إرثاً للحضارة الصاعدة. فحضارةُ اليونان أخذت إرثَ الحضارة المصريَّة والسوريَّة في مرحلة جمودها، وحضارةُ الإسلام أخذتْ عن حضارة اليونان والرومان وفارس في فترة انهيارها وهزيمتها، كما أخذتْ حضارةُ الغرب تعبّ من حضارة الإسلام بعد أن أفَلَتْ شمسُها.

إنّ هذه الحالة من غياب النِّدِّيَّة تَخْلق لدى أصحاب الحضارة الناهضة وضعاً نفسياً قائماً على الشعور بالتفوُّق. فلا يُنظر إلى إرث الحضارات المنهارة نظرةَ تهديد هويّاتيّ أو نظرةَ غزوٍ ثقافيّ. وأيةُ ذلك أنّ القوَّة السياسيَّة والعسكريَّة للحضاراتِ المنهارة قد آلت إلى زوالٍ بحيث لم تعد تشكِّل تهديداً للحضارة الناهضة.

المبدأ الثالث: وهو أنّ الحضارات الراكدة، التي فقدتْ حيويَّتها، تتأثَّر بالحضارة المتحرِّكة والحيويَّة وتستدعيها، ولكنْ دون أن تعيد إنتاجها ودون أن تخلق كيفاً حضارياً جديداً، فيظلّ تأثيرُها خارجيّاً حتى ولو شَرَعَتْ بترجمة كلِّ منجزات الحضارة القويَّة الصاعدة.

ونقصد بـ «الحضارة الراكدة» غيابَ قوى اجتماعيَّةٍ صاعدةٍ وفقدانَها نظرةً جديدةً إلى العالم، متعايشةً مع تناقضاتها دون أن تتحوَّل هذه التناقضاتُ إلى آليةِ تركيبٍ جديدٍ لعالَمٍ جديدٍ.

فإذا عرفنا أنّ الحضارة الناهضة تَخْلق أفكاراً ومفاهيمَ ومنظوماتٍ أيديولوجيَّةً وعلوماً تطبيقيَّةً ونمطَ حياةٍ قابلةً كلّها للانتشار، فإنّ الحضارة الراكدة تعتقد أنَّها بتمثُّلِها منجزاتِ الحضارةِ الناهضةِ قادرةٌ على بعث الحيويَّة في جسدها الراكد. ومن ثَمَّ تَظْهر هنا فكرةُ «إعادة تجربة الآخر».

والحقّ أنّ هناك فرقاً كبيراً بين امتلاك منجزات حضارةٍ ما في لحظةِ صعودِ الحضارة، وبين إعادة تجربة حضارة سائدة في وقتٍ يكون فيه المجتمع المستعيد راكداً. ففي الحالة الأولى، هناك استدعاءٌ وتجاوز، وفي الحالة الثانية هناك تبنٍّ ميكانيكيٌّ ظاهريٌّ.

وهكذا فإنَّ جمهوراً من أبناء الحضارة الراكدة ـ وقد شاهدوا انتشارَ الحضارة الناهضة دون أن تُحدِثَ تحوُّلاً

---

١ ـ لمزيد من المعلومات حول هذه القضية، انظر: شارل فرنر: **الفلسفة اليونانية**، بيروت ١٩٩٨، ص ١٨ ـ ٢٢.

٢ ـ أُنظر بهذا الصدد، أحمد أمين: **ضحى الإسلام**، الجزء الأول.

٣ ـ أُنظر بهذا الصدد كتاب: توبي أ. هاف: **فجر العلم الحديث**، الجزء الأول، من سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢١٩، الكويت، ١٩٩٧.

الحضارة القويّة لا تحاور بل تهيمن،
والحضارة الراكدة لا تحاور بل تستقبل

عميقاً في قَلْب المجتمع والوعي ـ يعودون إلى التمسُّك بإرثهم القديم، ولا يَرَوْن في ما هو قابلٌ للانتشار من الحضارة الناهضة إلاَّ تمرُّداً ثقافياً يجب أن يواجَهَ بالتمسُّك بالهويَّة التي تهدِّدها ـ كما يعتقدون ـ تلك الحضارةُ الأخرى الناهضةُ.

وهكذا تنشأ في الحضارة الراكدة حالةٌ من التناقض غير المثمر بين نمطيْن من النُّخَب: نمطٍ ينتمي في وعيه التاريخيّ إلى الحضارة المتقدِّمة؛ ونمطٍ يحتفظ بوعيه التاريخيّ القديم، فينتمي إلى عصرٍ سابق.

وعندما نقول إنَّه «تناقضٌ غيرُ مثمر»، فلأنَّه حاضرٌ في مجتمعٍ راكدٍ أصلاً. ولهذا لا يَنتج عنه أيُّ ترتيبٍ جديدٍ.

المبدأ الرابع: وهو أنّ الحضارة العالميَّة هي حضارةُ أمَّةٍ عالميَّةٍ، وليست هي حضارات العالم.

ونقصد بـ «الأمة العالميَّة»: الأمةَ التي وصلتْ إلى درجةٍ من التقدُّم الكُلّيّ وصارت معها قادرةً على أن تَطْبع العالَمَ بطابعها، فتغدو حضارتُها عالميَّةً، أيْ قابلةً للانتشار. وقابليتُها للانتشار هذه ناتجةٌ عن علاقة التفاوت بين الحضارة العالميَّة والحضارة المحليَّة. وإذّاك تغدو لغةُ الأمة العالميَّة لغةً عالميَّةً، وأدبُ الأمَّة العالميَّة أدباً عالميّاً، وعِلْمُ الأمَّة العالميَّة عِلْماً عالميًا، وأفكارُ الأمَّة العالميَّة أفكاراً عالميَّة، وهكذا.

وإذا ما تحدَّثنا عن عالمنا الراهن لنطبِّق عليه هذا المبدأَ، نجد أنّ أوروبا منذ القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين قد شهدتْ أمماً عالميَّةً متفاوتةً في قوة سيطرتها: وهي الأمم الألمانيَّة والفرنسيَّة والإنكليزيَّة. ونجد أنّ انتصار العلاقات الرأسماليَّة وتحوُّلَها إلى إمبرياليَّة ـ أيْ إلى رأسماليَّة توسُّعيَّة ـ قد طَبَعَ العالم كلَّه بطابعها. ولمَّا كانت هذه الامبرياليَّةُ أوروبيَّةَ المنشإ والتطوُّر، فإنَّ كلَّ العالم قد عرف ـ بهذا الشكل وأذاك ـ تأثيراتِها القويَّة، إمّا بفعل التوسُّع الماديّ (الاستثمار) أو بفعل الإعجاب بهذا المستوى من التقدُّم.

ولقد شهد العالَمُ سيطرة اللغتيْن الفرنسيَّة والإنكليزيَّة بوصفهما لغتيْن عالميتيْن. وفي عصر نهضة روسيا القيصريَّة نفسها، كانت اللغةُ والثقافةُ الفرنسيَّةُ هما لغةَ النخبة الأرستقراطيَّة الروسيَّة وثقافتها؛ والأمرُ عينُه ينطبق على فنّ العمارة في روسيا تلك.

وغدت اللغة الإنكليزيَّة هي لغةَ المعرفة والعلم اليومَ. ويجب أن نذكر أنَّه رغم الطابع التوسُّعي لهذه الرأسماليَّة وهمجيتها في السيطرة على الشعوب، فإنّ أفكارها لاقت انتشاراً واسعاً في العالم: من فكرة «الديموقراطية» إلى فكرة «العلم»، وانتهاءً بفكرتَي «الاشتراكية» و«تحرُّر المرأة» الخ. (ومن الطريف أنّ الذين يعادون الغربَ بفكرة «الاشتراكيَّة» ينسون أنَّها فكرة غربيَّة أصلاً!).

ومع ظهور قوةٍ إمبرياليَّةٍ أكثر قوةً وقدرةً على التوسُّع، وأكثر سرعةً في التطوُّر التقنيّ ـ العلميّ، وأعني الإمبرياليَّة الأمريكيَّة، غدت الولاياتُ المتحدة الآن هي الأمَّة العالميَّة، ومعها صارت الإنكليزيَّة منفردةً هي اللغةَ العالميَّةَ، ونمطُ الحياة الأمريكية وثقافتُها يكادان يسيطران على كل بقاع العالم الراهن.

إنّ قولنا إنَّ هناك حضارةً عالميَّةً، هي حضارةُ أمةٍ عالميَّةٍ، ليس حكمَ قيمةٍ. فقد لا تكون للأمَّة العالميَّةِ أفكارٌ قابلةٌ للانتشار ذاتُ بعدٍ إنسانيٍّ، بل قد تكون منحطةً في مستوى الأخلاق. ولكنَّها مع ذلك تكون قادرة على نشر نمط حياتها وقيمِها، بمعزل عن طبيعة هذا النمط وهذه القيم.

المبدأ الخامس: لا يُمْكن إعادةُ إنتاج حضارةٍ بادت، ولا تكرارُها انطلاقاً من الشروط التي أَنْتَجَتْها.

وحُجَّتنا في ذلك هي التاريخ. فلم يَعْرف التاريخُ حتى الآن أنْ قامت حضارةٌ من مَوَاتها باستعادة تجربتها: فلا الحضارة الآشوريَّة بُعثتْ، كما لم تُبعث الحضارةُ اليونانيَّة، ولا الإسلاميَّة. وأنْ يتحكَّم وهمُ إعادة تكرارِ حضارةٍ بادت لَمِنْ شأنِهِ أن يزيد من الركودِ التاريخيّ.

وقائلٍ ها هي الصين تُبعث من جديد. وهذا صحيح، ولكنّ الحضارة الصينيَّة الجديدة لا علاقة لها بحضارتها القديمة إطلاقاً. بل هي حضارةُ تجربةٍ اشتراكيَّةٍ وصناعيَّةٍ وليدة.

ومن هنا يَنْتج أنَّ على الأمم الحضاريَّة، إذا ما أرادت أن تبني حضارةً جديدةً متجاوزةً ركودَها، أن تنطلق من تصوُّراتٍ جديدةٍ وتَحْمل في أحشائها قوى اجتماعيَّةً جديدةً يُنتجها الواقعُ المعاصرُ ذاتُه. وعليه، لا تُبنى حضارةٌ جديدةٌ إلا بقوى داخليَّة أولاً وأخيراً، ومن العبث الظنُّ أنَّ هناك إمكانيةَ بناءِ حضارةٍ استناداً إلى عاملٍ خارجيٍّ أو باستعارة تجارب الآخرين.

استناداً إلى هذه المبادئ كلها فإنّ النقاش الدائر الآن حول «حوار الحضارات أو صراعها» نقاشٌ عقيم أولاً، ولا يَنتج عقلياً من السيرورة التاريخيَّة للحضارة.

فالحضارة القويَّة لا تحاور بل تُهيمن، ولا تتأثَّر بغيرها بل تُنتج مؤثِّراتٍ على الغير حتى ولو اكتسبتْ منجزاتِ حضاراتٍ أخرى. والحضارة الراكدة لا تحاور هي أيضاً، بل تَسْتقبل كجهاز استقبالٍ ليس إلا، ولا يَنْتج من استقبالها كيفٌ جديدٌ للحضارة.

وبناءً عليه لا يكون السؤالُ صحيحاً إلاَّ إذا طرحناه على النحو التالي: هل هناك إمكانيَّاتٌ قابعةٌ في قلب الواقع تَسْمح لنا بالتفكير بصناعةِ حضارةٍ عربيَّةٍ جديدة؟ □

دمشق